تجليات الخطاب النقدي لدى محمد البشير الإبراهيمي؛ قراءة في آثاره الأدبية

The manifestations of Mohamed El Bachir El Ibrahimi critical discourse: Study in his literary writings.

د. محاوي كريمة

المدرسة العليا للأساتذة – بشار (الجزائر)

تاريخ الإرسال: 2020/02/27 **تاريخ القبول**: 2020/03/13

ملخص:

يشكل اهتمام الإبراهيمي بالأدب ونقده ومسايرة ما طرأ من أفكار وما جدّ في الأدب العربي، ظاهرة قد لا تكون بيّنة عند قرائه، وسط مقالاته السياسية والإصلاحية. غير أن المتأمل لكتاباته يظفر بعدد لا بأس به من الآراء والأحكام النقدية، كما يمكن استخلاص قاموس مصطلحي له في هذا المجال استمده من تراثنا الأدبي النقدي وما استجد في مجال الأدب من تأثر بالحضارة الغربية. وهذا البحث محاولة لرصد الخطاب النقدي عند محمد البشير الإبراهيمي.

الكلمات المفتاحية: نقد، خطاب، الإبراهيمي، مصطلح، أدب جزائري، أحكام نقدية أدب عربي.

Abstract :

El Ibrahimi´s interest in literature and literary criticism and keeping up with novel ideas and what is new in Arabic literature, is a phenomenon that may not be evident to his readers, particularly in his political and reformation articles. However any crtical reader of his writings finds a good number of opinions and critical judgments. Also, a terminology dictionary can be extracted in this field. This terminology is derived from our literary critical heritage, or from what was new in the field of literature affected by western civilisation. This research is an effort to observe Mohamed El Bachir El Ibrahimi´s critical discourse.

***Keywords*:** criticism, discourse, El Ibrahimi, term, Algerian literature, critical judgments, Arabic literature.

تمهيد:

محمد البشير الإبراهيمي واحد من أعلام الفكر العربي في القرن العشرين، ورائد من رواد الثقافة والأدب في الجزائر. عرف باهتمامه بالأدب والأدباء، سواء على المستوى الجزائري أم العربي؛ بذل جهدا في الارتقاء بالنص الأدبي، مقتديا في ذلك بإخوانه في المشرق العربي، الذين نشر لهم في البصائر، وعرّف بهم، ودعا الجزائريين إلى الاحتذاء بمسيرتهم في إحياء التراث العربي وتطويره. وقد عبّر عن ذلك في أكثر من مناسبة.

بدأ الخطاب النقدي يسود في الجزائر منذ مطلع القرن العشرين، ثائرا على الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية السائدة آنذاك تحت وطأة الاستعمار. ومثلما تجلى الخطاب النقدي السياسي في الصحف والمجلات بقيادة أحزاب سياسية وشخصيات وطنية، بدأ الخطاب النقدي الأدبي يجد له مكانا في أعمدة بعض الصحف والمجلات وعلى لسان أدباء وشعراء جزائريين اهتموا بالأدب الجزائري على شاكلة محمد الهادي السنوسي الزاهري صاحب كتاب "شعراء الجزائر في العصر الحاضر" والذي حمل في طياته رؤى نقدية أدبية له وللشعراء الذين ضمهم هذا الكتاب وهي رؤى نقدية جديرة بالدراسة، إذ تؤرخ لمرحلة حساسة من مراحل تطور الأدب العربي في الجزائر. ونذكر أيضا رمضان حمود الناقد الجزائري الذي خطا خطوة جريئة في ميدان النقد الأدبي.

عاصر الإبراهيمي هؤلاء الأدباء والنقاد الجزائريين، لكن وِجهته تمركزت حول الإصلاح الاجتماعي والديني. وهذه الوجهة الإصلاحية طغت على موروثه الفكري والأدبي، ولم يكد يُعرف إلّا بها. وبما أنه أديب ومهتم بالأدب لم تخلُ كتاباته من رؤى نقدية للأدب الجزائري والعربي بشكل عام، فوِجهته الإصلاحية لم تقتصر على الجانب الاجتماعي والديني ولكنها شملت أيضا الأدب بوصفه مرآة لهذا المجتمع المنهك. لقد بذل جهده من خلال منجزاته في "البصائر" من أجل الرقي بمستوى الأدب ونقده في الجزائر، غير أن طبيعة المرحلة وانتماءه لجمعية العلماء المسلمين وتحمله لمسؤوليتها بعد وفاة مؤسسها الأوّل عبد الحميد بن باديس كل ذلك، ربما، جعله يقصّر في مهمته الأدبية والنقدية، مما أدى إلى اختفاء خطابه النقدي خلف الخطاب الإصلاحي الذي ظلّ ظاهرا بقوة خلال سنوات الاحتلال وبعده.

إنّ اهتمام الوسط الثقافي والإعلامي في الجزائر بعد الاستقلال بالجانب النضالي والإصلاحي للإبراهيمي أسهم بقسط كبير في تعتيم شخصيته الأدبية الفذة ودفع بإسهاماته النقدية إلى زاوية مظلمة من تاريخنا المشرق. لقد كان الإبراهيمي شغوفا بالأدب العربي إلى درجة كبيرة وشغفه الكبير دفعه إلى نقده وتقصي مواطن الجمال والقبح فيه، لكنه لم يكتب كثيرا في هذا المجال. وإذا ما تتبعنا مقالاته الأدبية سنجد له رؤى نقدية مثيرة للاهتمام تتباين أحيانا وتتماثل في أحيان أخرى. فهل كان خطابه النقدي محسوبا على تيار نقدي معين؟ وهل كان متأثرا بإحدى المدارس النقدية العربية أو الغربية آنذاك؟ أم أنها كانت مجرد انطباعات فطرية؟

تتوفر آثار البشير الإبراهيمي الأدبية على ملامح نقدية كثيرة، كان يجود بها من حين لآخر كلّما دعت إليها ضرورة، وكانت في مجملها تتمثل في آرائه ووجهات نظره فيما ينبغي للأدب العربي أو الجزائري أن يكون عليه؛ فنجدها أحيانا أحكاما نقدية تخصّ النص الأدبي أو مبدعه، وأحيانا أخرى تأتي عفو الخاطر وصفا لشاعر أو كاتب، أو مقطوعة شعرية أو نثرية، تستجلي مكامن الإبداع لدى الأديب أو مواطن الجمال في النص الأدبي. كما نجده في أحيان أخرى يعتب على شاعر أو كاتب، يبين له مواطن ضعفه، ويحثه على ترقية إبداعه مثلما فعل مع محمد العيد آل خليفة أو ما فعله مع عمر الأميري. أما الأدب الجزائري فكان محط اهتمامه، فقد أولاه عنايته، بحيث دعا الأدباء الجزائريين في كلّ مناسبة إلى الارتقاء بأدبهم وتطوير مواهبهم وصقل بلاغتهم.

1- تجليات المصطلح في خطاب الإبراهيمي النقدي:

كانت للإبراهيمي رؤية نقدية خاصة، تتقاطع أحيانا مع مدرسة الإحياء العربية وتلتقي معها في كثير من مبادئها، كما أن خطابه النقدي يتسم في أحيان أخرى بلمسة تأثرية تجعل القارئ يميل إلى تصنيف خطابه ضمن دائرة الخطاب التأثري الذي مثلته مدرسة الديوان وجماعة أبولو وعدد من النقاد العرب. وفيما يلي أهم المصطلحات النقدية التي تضمنتها كتاباته الأدبية:

المصطلح الرئيس	المصطلحات المتفرعة بحسب استعمالها في آثار البشير الإبراهيمي
النقد	النظم، الذاتية، الموضوعية، الوجدانية، الصدق والكذب، الصقل، اللفظ والمعنى، التقليد والتجديد، شعراء المادة، الإغراق والغلو، التساهل والاستخفاف، السرقات، القريحة والصنعة، النقد والإبداع، الناقد، المقاييس والمعايير، المفاضلة.
الأدب	الأدب العربي، الأدب الجزائري، النهضة الأدبية، العمل الفني، الإنتاج الأدبي، الأديب، الأثر الأدبي، دور الأدب، الملكات الأدبية.
الشعر	الشعر الحي، الشاعرية، القافية، الأغراض، الفحولة، راوية.
التلقي	القارئ، السامع، المشاهد، حاجات القارئ.
التركيب	السبك، الصياغة، الأساليب، حسن التركيب، حسن التأليف.
الجمالية	الجمال، الخيال والخيالات والتخييل والمخايل، الإبداع والقول البديع التصوير، الجودة الفنية، الإشراق الفني، الذوق والإحساس، الترديد اللذيذ والتكرار الحلو.
البلاغة	الحشو، الدخيل، المبتذل، الغريب، الوحشي، المأنوس السهل، التنافر في النظم، أشرف وأجزل، البيان.

تشترك المصطلحات في هذا الجدول وتتداخل في بعض الأحيان، كما تفترق وتتعارض في أحيان أخرى، لكنها لا تخرج عن المفهوم النقدي إلاّ في أحيان قليلة، وذلك عند استعمالها في غير مجالها الأدبي، أو بمعناها المعجمي،كما أن هذه المصطلحات فيها ما استعمله الإبراهيمي بلفظها وفيها ما أشار إليه من قريب أو بعيد. وبناء على هذه المصطلحات يمكن تمييز اتجاهين نقديين ظهرت ملامحهما في خطاب الإبراهيمي النقدي؛ملامح الخطاب النقدي القديم في كتاباته، وملامح الخطاب النقدي الحديث.

أ– ملامح الخطاب النقدي القديم:

يوجد عدد معتبر من المصطلحات النقدية التي اعتمدها النقاد العرب القدامى في كتابات الإبراهيمي، مما يدل على ثقافته الأدبية العربية العريقة، إضافة إلى إثارته لبعض

القضايا النقدية التي حفلت بها كتب النقد القديمة كقضية اللفظ والمعنى وقضية القديم والجديد والصدق والكذب.

- **اعتماد المصطلحات النقدية التراثية:**

المصطلحات النقدية المتعلقة بمصطلح "النقد" وتجلياتها في الخطاب الأدبي عند الإبراهيمي كثيرة ومقال كهذا لا يستوعبها كلها، لكن حسبنا، ههنا، الإشارة إليها وإلى المواضع التي ذكرت فيها، ونذكر منها: **"النظم"** وقد ورد في تقديمه لخماسيات عمر الأميري في البصائر العدد 195، جويلية 1952. وقد ورد هذا المصطلح بمعنيين؛ الأول بمعنى قول وصياغته الشعر إذ يقول:«نظم كثيرا ولم ينشر شيئا»[1] والثاني بمعنى السبك و"توخي معاني النحو" وفق تعريف الجرجاني له؛ إذ يقول: «ولو رزق الأميري أناة في نظمه للشعر وصبرا على صقله ..»[2] وهنا ينتقد الشاعر ويدعوه إلى نظم الشعر بحيث يعطيه حقه من الجهد والوقت ليخرج في حلة جميلة. كما نجد الإبراهيمي يتحدث عن بلاغة الشعر عند الشعراء الذين نشر لهم أو تعرض لهم في مقالاته، وكثيرا ما يستعمل مصطلحات البلاغة التراثية كمصطلح "الصقل" و"النظم" و"الفحولة".

اعتمد الإبراهيمي مصطلحات نقدية تراثية تدل على اطلاعه الواسع وإحاطته بكتب النقد العربية القديمة وقد جاء ذكرها في مسودة مقال بدأه ولم يكمله، أراد أن يسهم به في النقاش الذي دار بين الأدباء الجزائريين حول مستوى الأدب الجزائري آنذاك بين سنة 1952 و1953م. ذكر الإبراهيمي كتب النقد في أثناء حديثه عن الكتب اللغوية والأدبية التي ينبغي لمن أراد أن يكون أديبا أن يطلع عليها ويدرسها دراسة نظر وتمعن، وأن لا يكتفي بمطالعة قواميس اللغة ومعاجمها التي تهدف إلى التدريس ولا تهدف إلى التثقيف فتنشئ مدرِّسا ولا تنشئ أديبا، يقول: «وإذا ذكرنا قاموس الفيروزابادي فما كل القواميس مثله: فلسان العرب كتاب يعلّم اللغة، وكتاب المقاييس لابن فارس كتاب لغة يعلم الأدب وكتاب المخصّص لابن سيده كتاب لغة وأدب معا، أما اللغة الحقيقية فهي أشعار العرب وأحاديثهم وخطبهم ومحاوراتهم (...) وكتب النقد ككتابي قدامة بن جعفر على صغر حجميهما والصناعتين للعسكري والعمدة لابن رشيق حتى تنتهي إلى المحيط الهادي:

الأغاني وما أدراك ما الأغاني»[3]. لقد زخر هذا المقال بالنصائح لأدباء الجزائر آنذك ويستحق دراسة نقدية خاصة به، لكنه في كلّ الأحوال يدل على إحاطة دقيقة بكتب اللغة والأدب مكنت الإبراهيمي من ناصية اللغة العربية.

التركيب والبلاغة، مصطلحان ارتبطت بهما مصطلحات متفرعة عنهما وجدت متناثرة في كتابات البشير الإبراهيمي، وظفها كلما استدعتها ضرورة الكتابة والنقد. استعمل ألفاظ السبك والصياغة والصقل، وهي مصطلحات نقدية تراثية ارتبطت بالبلاغة العربية وحسن التأليف. قال منتقدا لحال الأدب العربي في الجزائر سنة 1953م: «وكل ما يستعمله الشعراء والكتاب اليوم كلمات متداولة محدودة، (...) والمواضيع تتجدد، والمعاني تتوارد وتتشابه ثم تتمازج ثم تتمايز، فمن الواجب أن ننحت من هذا المعدن القديم كلّ يوم جوهرة ونصقلها»[4]. كما استعمل مصطلحات بلاغية مثل الدخيل والمبتذل والغريب والوحشي والمأنوس السهل والترديد اللذيذ والتكرار الحلو، وكلها مصطلحات نقدية تراثية، اعتاد نقادنا القدماء استعمالها في مباحث نقدية مرتبطة بالبلاغة والبيان. وبهذا فإنّ المصطلح النقدي موجود في آثار الإبراهيمي يستطيع القارئ الباحث أن يجدها في كلّ مقال أو نص من نصوصه الأدبية تدل على تمكنه من الأدب وعلومه.

- **الاهتمام بقضايا نقدية قديمة:**

اهتم الإبراهيمي بعدد من القضايا النقدية التي حفلت بها كتب القدماء منها: القريحة والصنعة، والتقليد والتجديد، والصدق والكذب، والألفاظ والمعاني. وهي قضايا اصطرع حولها الأدباء قديما وحديثا، مناقشة وتحليلا ونقدا. وكان للبشير الإبراهيمي في هذا المجال نصيب في بعض آثاره التي تمكنت من الاطلاع عليها، وأذكر منها مايلي: «.. فالملكات الأدبية لا تكفي فيها القريحة والطبع حتى تمدها الصنعة بأمدادها..»[5] ويعني بالقريحة الموهبة التي يتمتع بها الأديب فطريا في ميله إلى الكتابة الأدبية، أو قول الشعر، أمّا الصنعة فهي تَعَلُّمه لتقنيات التعبير ودراسته لأساليب القول وأفانين الكلام. لذلك نجده يقول بعد ذلك: «وإنما يجب على من يربي ملكته على أساس متين أن يأخذ اللغة من منثور العرب

ومنظومهم، فيستفيد بذلك فائدتين: الأولى الكلمة ومعناها، والثانية وضعها في التركيب وموقعها منه وموقعه من النفوس، وحسن التركيب هو سر العربية»[6].

التقليد والتجديد قضية نقدية قديمة جديدة، تظهر في كلّ عصر، وينقسم الأدباء والنقاد فيها بين مقلّد ومجدد، وداع للتجديد والإبداع، ومنغلق على القديم لا يرى حسنا ولا جمالا إلا في اتباع سبيله. تردد هذا المصطلح في عدد من كتابات الإبراهيمي، وبدا رأيه في هذه القضية واضحا، على الرغم من أنه من دعاة إحياء الأدب العربي والانتفاع بتراثه فإنه يدعو إلى الانفتاح والإبداع بشرط الحفاظ على أصالة اللغة العربية، والتمسك بعناصر الهوية العربية والإسلامية، ونجد ذلك واضحا في قوله: «فلكل أدب طابعه ولكل أمة نهجها ومشكلاتها الخاصة وطبيعتها المعيّنة التي تملي حلولا معيّنة، فلا بد من الرجوع إلى بيئتنا وماضينا وتراثنا ومقوّمات جنسيتنا وقوميتنا، قبل أن نحاول جديدا...»[7]، وفي نفس السياق أكد على ضرورة الانتباه والحذر من التقليد للتقليد والتجديد للتجديد لأن واقع الأمم لا يتشابه، فليس كل واقع صالح للبقاء، "وليس كلّ جديد له هدف، أو يحقق فائدة". كما نجد الإبراهيمي يتحدث عن تقليد الغرب ويحذر منه في أثناء حديثه عن أحمد شوقي: «..وأنه (يقصد الأديب) إن أراد أن يبني العلم والبيان والقوة على أسسها الصحيحة فليتلمسها من معادنها في أسلافه ولا يأخذها بالتقليد للغرب والاستعارة من الغرب..»[8]

الصدق والكذب قضية نقدية أخرى نجد لها صدى في كتابات الإبراهيمي، وفي كل مرة كان يؤكد على الصدق في التعبير عن المشاعر، والصدق في نقل الحقائق، والتعبير عن حاجات المتلقي، وفي هذا يقول: «يجب أن يظل أدبنا عربيا يستمد شخصيته وأهدافه من حاجاتنا الواقعية لا المفتعلة ولا المزيفة»[9]. كما أنّ قضية الألفاظ والمعاني لم تغب عن كتابات الإبراهيمي الأدبية، فأكد في أكثر من موضع على أهمية المعنى وضرورة تخيّر اللفظ المناسب له في السياق المناسب، وقد بدا ذلك واضحا في قوله متحدثا عن دور القراءة المتمعنة لكتب الأوائل: «فيستفيد بذلك فائدتين: الأولى الكلمة ومعناها، والثانية وضعها في التركيب وموقعها منه وموقعه من النفوس، وحسن التركيب هو سر العربية، ويسميه علماء البلاغة حسن التأليف، ومن كلماتهم التي سارت مسير الأمثال قولهم: ولكل كلمة

مع صاحبتها مقام.»[10] وهو يؤمن بأنّ المعاني هي الأصل، وينبغي أن تختار اختيارا، فترقى برقيها الأعمال الأدبية، ومن ثم تركب هذه المعاني في الألفاظ التي تتناسب معها، لذلك نجده يذكر كثيرا:"الألفاظ مفصلة على المعاني" أو في مواضع أخرى "اللغة مفصلة على المعاني"[11] ويقول في القصيدة التهكمية "إن أردت":

إنْ أَرَدْتَ الدَّهْرَ تَغْدو ** شاَعِرًا يَرْعَى ويُرْعَى
فَاجْعَلْ الْأَلْفَاظَ أصْلا ** والمعَاني الغُرّ فَرْعَا

ب– ملامح الخطاب النقدي الحديث:

يوجد في كتابات الإبراهيمي ملامح عديدة للنقد الأدبي الحديث، منها ما يحيل على الفكر الإحيائي السائد آنذاك متمثلا في مدرسة الإحياء العربية المحافظة، ومنها ما يشير إلى تأثر ليس بالكبير بالاتجاه التأثري الوجداني الذي مثلته جماعة أبولو وعدد من نقاد العرب في المهجر، ومنها ما ينبئ عن تأثر بما استجد من فنون في الغرب. وهذه الملامح تدل على سعة اطلاع لدى الإبراهيمي ومرونة فكرية قلّ ما نجدها عند علماء عصره المحسوبين على التيار الديني.

- **تأثره بمدرسة الإحياء:**

يظهر تأثر الإبراهيمي بمدرسة الإحياء العربية جليا في ميله الشديد للشاعر أحمد شوقي أحد رواد هذه المدرسة، حيث يرى أنه مثال للشاعر المتمكن، واعتبره "شاعر العرب" في كلمته التي ألقاها في مهرجان أحمد شوقي بالقاهرة في أكتوبر 1958م، ووضح رأيه في الشاعر قائلا: «ورأيي في شوقي معروف في المشرق والمغرب بين خلصائي من الأدباء وخلطائي من المتأدبين، فلم أزل – منذ كان لي رأي في الأدب ـ أغالي بقيمة شوقي في الشعراء السابقين واللاحقين»[12].

وفي كلمة أخرى نجد الإبراهيمي يشيد بشعر شوقي وأساليبه البيانية؛ هذه المرة في كلمته التي ألقيت نيابة عنه في الحفل الذي أقيم بجمعية الشبان المسلمين بالقاهرة في فبراير 1955م تحت عنوان "الدين في شعر أحمد شوقي"، وإني لأجد هذه الكلمة مقالا نقديا متكاملا حول الدين في شعر أحمد شوقي، تتجاوز الكلمة التي تشيد بموضوع كهذا في

حفل تكريمي،إذ يقول متحدثا عن تنوع أساليبه في قصائده بهدف نصرة الدين: «ولا تكاد تخلو قصيدة من قصائده من هذه الفنون، يخرج إليها من عمود القصيدة ولو كانت في الرثاء أو في الأغراض البعيدة، حتى قال بعض ناقديه إن شعره خال من وحدة القصيدة»[13]. وقد كان الإبراهيمي نفسه ناقدا لشوقي في هذه الكلمة حينما تعرض لمبالغته وغلوه في بعض شعره ويصفها بالهفوات التي تدخل في باب الإغراق والغلو أو في باب التساهل والإسفاف، ويبرر له في ذلك وقوع من سبقه من فحول الشعراء في مثل ذلك، أمثال ابن هانئ الأندلسي والمتنبي والرضي.[14] والمؤسف في هذا المقال أنه بدأ في آخره فصلا عن لغة شوقي في شعره لكنه لم يكمله، ولو أنه أكمله لتمكنا من رصد مقال نقدي له في لغة الشعر عند شوقي.

وفي كلمة له تحت عنوان "حرية الأديب وحمايتها" التي ألقاها في المؤتمر الثالث للأدباء العرب (9–10 ديسمبر 1957م) بالقاهرة. يقول: «ومن حماية حرية الأديب أن نتجه بالنقد وجهة موضوعية فنية، ونبعد به عن تلك المهاترات التي تتأذى بها العيون والأسماع والقلوب والعقول، فالنقد تابع للإبداع، وليس الإبداع عبدا للنقد»[15]. يتحدث الإبراهيمي ههنا عن وظيفة النقد ودور الأدب، وعلاقة النقد بمفهوم الموضوعية، فهو يرى أن النقد ينبغي أن يتجه وجهة "موضوعية فنية"؛ بمعنى أن يلتزم بالمعايير الموضوعية المرتبطة بالمقاييس الفنية. كما أن للأدب دور عليه أن يؤديه، آخذا بعين الاعتبار وظيفته الاجتماعية والأخلاقية، معتمدا توجيه النقد دون أن يطغى أحدهما على الآخر.

كان الإبراهيمي أحد المنورين العرب الذين لم يكن اهتمامهم بالأدب «اهتماما ذوقيا جماليا، في المقام الأول. بل كان اهتماما فكريا اجتماعيا يتأسّس على ضرورة الإحياء الاجتماعي والانبعاث الثقافي– الحضاري»[16]. وكتاباتهم النقدية تؤكد أنهم كانوا يربطون بين الجميل والنافع، أو بين المتعة والفائدة.

إنّ الموضوعية في النقد عند الإبراهيمي هي أن يؤدي النقد دوره بموضوعية، فيوجه ويسدّد؛ وفي ذلك نجده يقول في كلمته بـ "نادي القلم" عند تأسيسه في بغداد وهو يتحدث عن القلم وحمَلة القلم: «أيها الزملاء الكمَلة: يجب عليكم أن توجهوا بأقلامكم

الهادية هذه الأقلام الضالة، ثم تتوجهوا جميعا إلى الوجهة السديدة التي تنفع وتدفع وترفع وتسفع وتشفع، واسمعوا منّي معمولات هذه العوامل: إن الوجهة السديدة هي التي تنفع القريب، وتدفع الغريب، وترفع القناع عن المريب، وتشفع للمنيب، وتسفع المعتدين بالناصية»[17]. إنها كلماتٌ حدّد من خلالها الإبراهيمي وظيفة الأديب والناقد في آن معا من وجهة نظره الخاصة، اتجاه مختلف المتلقين على اختلاف وجهاتهم وأغراضهم وأهدافهم.

- **ملامح الاتجاه التأثري الوجداني:**

تتجلى ملامح الاتجاه التأثري الذي يعنى بالذات الإنسانية ويدعو إلى التعبير عن خلجاتها بكل حرية في كثير من المواضع في آثار الإبراهيمي، والمصطلحات الدالة على هذا التوجه كثيرة منها الذاتية والوجدانية والحرية ومنها قوله عند حديثه عن أصالة الأديب العربي وأصالة أدبه: «فإذا أفلح المستعمرون أو أذنابهم في تشكيكنا في أصالته وتحطيم خصائصه لم يعد لأدبنا هذه الذاتية القوية العارمة، وهذه الخاصية الجامعة التي يرهبها أعداؤنا ويعملون على سحقها»[18].

ظهر مصطلح الوجدانية في عدة مواضع منها المقال الذي صدّر به لخماسيات عمر الأميري وذكر أنه وجداني النزعة في قوله: «.. شاعر موهوب، رقيق الحس، وجداني النزعة خصب الشاعرية، مستجيب الطبع ...»[19]، ولعله يقصد أنه ينتمي إلى الاتجاه الوجداني أو متأثر به، هذا الاتجاه الذي كان سائدا آنذاك، وقد تجلّت بعض مظاهره في مدرسة الإحياء وبعض الاتجاهات الأدبية التي حملت شعاره متمثلة في جماعة الديوان التي كان شعارها "ألا يا طائر الفردوس إن الشعر وجدان". ومن الواضح أن الشيخ البشير الإبراهيمي على الرغم من انتمائه لمدرسة الإحياء العربية، إلا أنّه مطلع على الاتجاهات النقدية والأدبية السائدة في عصره، وخاصة منها الاتجاه الذاتي التأثري، والذي يدعو إلى ربط الأدب بالحياة، غير أنه لم يكن يقبل منها إلا ما يراه صحيحا ومعقولا ومفيدا للأدب والأديب ويترك، بل ينتقد ما لا يراه مناسبا أو مسيئا للشخصية العربية والإسلامية ومقوماتها.

تبدو بعض ملامح الاتجاه التأثري في تأكيده على بعض المبادئ التي يرى أنّه من الواجب على الأديب أن يتحلّى بها في علاقته مع العمل الأدبي من جهة وعلاقته مع

المتلقي من جهة أخرى: «والأديب إنما يكون أديبا بحق حين يكون أمين القلم صادق البيان ينقل إحساسه إلى قارئه في عمق وصدق»[20].

ومن المصطلحات التي نلمح من خلالها الاتجاه التأثري عند الإبراهيمي؛ الشاعرية مثلا، تتردّد كثيرا في كتاباته ويعبر بها عن القريحة والإلهام والإحساس الفني، يقول عن عمر بهاء الدين الأميري: «فدهشت لهذه الشاعرية الجياشة، التي وهبتها الفطرة الصافية لهذا الوزير الشاعر، وهذا الخيال الخصب الذي يفيض بالمعاني فيضا»[21]. ومن المصطلحات استعمل مصطلح "الشعر الحي"، في أثناء حديثه عن محمد العيد آل خليفة واصفا إياه بشاعر النهضة: «محمد العيد آل خليفة أول شاعر تشظت عنه صدفة النهضة في الجزائر وشعره أول شعر حي رافق النهضة العامة وحدا قوافلها»[22]. ولعله يقصد بذلك الشعر الذي يتفاعل مع محيطه الاجتماعي والفكري، فيعبر عنه ويصوره ويسعى لتحقيق أهداف نهضته وصموده.

أما الجمالية فقد كثرت المصطلحات الدالة عليها، وتجدها كلّما قرأت أثرا من آثره الأدبية أو مقالاته النقدية، أو مقدمات بعض الأعمال الأدبية له أو لغيره التي كان ينشرها في البصائر؛ منها الجمال والخيال والخيالات والمخايل والقول البديع والإشراق، ونمثل لذلك بقوله: «..ولكن للأميري نفسا مرحة (..) وهياما بالجمال في أكمل معانيه، لا يتدلّى إلى المعاني التافهة، التي يسف إليها أصحاب النفوس الصغيرة ... وللشعراء في فهم الجمال وفي معانيه، وفي مجاليه، وفي تذوقه، مشارب متفاوتة، تبتدئ من "الملأ الأعلى" وتنتهي إلى "الغرائز السفلى"!»[23].

- **الانفتاح على الفنون الأدبية الغربية:**

التلقي مصطلح جديد نسبيا بالنسبة للمرحلة التي عاش فيها الإبراهيمي، لكننا نجده واردا بقوة في كتاباته الأدبية، فمرة يذكر القارئ وأخرى السامع وفي أحيان كثيرة يذكر حاجاته التي ينبغي على الأديب أن يلبيها في عمله الأدبي، فالمتلقون يسعدون بما يقدمه لهم الأديب "الصادق" أيا كان لأنهم «يرون فيه أنفسهم جادين وهازلين، ضاحكين أو واجمين

فنحن نسعد بالعمل الأدبي كما نحسد في أنفسنا من ارتبط به ارتباط المتمني بالأمل الحلو أو ارتباط الحي بواقعه سعيدا أو أليما، أو ارتباط المرء بماضيه وذكرياته»[24].

يذكر الإبراهيمي، المتلقي المشاهد، ليثبت أنه متشبث بتراثه منفتح على واقع الآداب العالمية وتطورها في العالم الغربي، فلا ينكر ما استجد من فنون مرتبطة بالأدب؛ فيتحدث عن عراها الوثيقة التي لا ينبغي النظر إليها منفصلة، ولكن وجب التعامل معها على أنها فنون إنسانية تخدم البشرية بينها من التشابه والتماثل والاتصال مثلما بينها من التمايز والاختلاف بطابع الخصوصية. وفي هذا المعنى يقول متحدثا عن "الخطابة والتمثيل": «(...) وليس موقف الممثل بينهم دون موقف الخطيب ولا موقع الرواية من نفوسهم دون موقع الخطبة. فإنما الخطيب والممثل شيء واحد– الممثل خطيب إذا أحسن تصوير المغزى وشخّص الحقائق الغائبة للمشاهدين كالحاضر المشاهَد، وألبس الخيالات لباس الواقع المحسوس. والخطيب ممثل إذا عرف كيف يقص الخبر وكيف يستخرج العبر، وكيف يسوق المؤثرات فيترك في نفوس سامعيه أعمق الأثر».[25]

2- **أسلوبه النقدي:**

- **من الوصف إلى الإنتاج:**

للإبراهيمي طريقة خاصة في نقد الأعمال الأدبية، ترتكز في البداية على إظهار مكامن الإبداع وجماليات النص وقدرات المبدع التي قد لا تظهر كلها في العمل الفني ثم يعرج على النقائص والسلبيات موظفا أسلوب النصح والإرشاد لتخفيف حدة الانتقاد. وبهذا فإنّ الوصف يشكل ظاهرة في كتابات البشير الإبراهيمي الأدبية وكتاباته المتعلقة بالأدب دراسة ونقدا، وبوصفه أحد رواد الحركة الإصلاحية والإحيائية في الأدب الجزائري، فإنه اضطلع بأداء مهمة التعريف بالأدب العربي قديمه وحديثه، وشيء من الفكر العالمي (ولو بشكل غير مباشر)، والتعريف بأدباء الأمة العربية والإسلامية ومفكريها. والذي شدّ انتباهي في كتاباته أنه يصف نصا أو موضوعا أو أديبا وسرعان ما ينتقل في حديثه إلى إنتاج نص أدبي خاص به انطلاقا من هذا الوصف. ومن أمثلة هذه الظاهرة ما جاء في مقاله "نفحات من الشعر الجزائري الحديث"، وهي مقدمة كتبها الشيخ لقصيدة "تحية الحجاج" للشاعر محمد العيد آل

خليفة. بدأ هذه المقدمة بوصف الحالة النفسية السيئة التي اعترت الشاعر آنذاك، وانتقدها ليتحدث بعدها عن القصيدة ويصفها في سياقها، وسرعان مانجده ينتج نصا يدلي فيه بدلوه حول موضوع القصيدة ومناسبتها فيقول: «وليس كلّ الحجّاج يستحقون هذه التهنئة، ففيهم من حج زورا، وعمل منزورا، ورجع موزورا، وأهدى بدنة فكأنما قرب زرزورا، ولكن التجليات التي غمرت الشاعر ففاضت قريحته بهذه القصيدة، هي التجليات الزمنية ...»[26]، وهو بهذا يؤدي دور الناقد المنتج الذي ينتج من النص الأول نصا آخر يترك فيه بصمته، فيستنطقه ليستخرج منه أفكارا قد لا تكون بالضرورة أحد منطلقات المبدع الأوّل للنص. ولعل الإبراهيمي بهذا يريد أن يبعث رسالة من خلال هذه القصيدة التي لم تذكر ما عبر عنه بقوله: "وليس كل الحجاج يستحقون التهنئة.."، ولكنّه أراد أن يوصل رسالة أخرى من عنده، دورها الإصلاح في مفهوم الحج لدى الناس، وبذلك يؤدي رفقة المبدع الشاعر دورا مشتركا في النفع والإفادة بالأدب الذي يراه دائما ذا دور أساسي في إحياء المجتمع.

ومن أمثلة هذه الظاهرة ما ورد في الكلمة التي ألقاها بنادي القلم في بغداد، حيث يصف في ثناياها النادي وعلاقته برجاله، لينتقل بعدها إلى الإنتاج متحدثا عن دور القلم وأهله في نص بديع وبليغ يستحق أن يدرس وتدرس ألفاظه وأساليبه[27]. أمّا النص الأدبي الممتع فنجده في مقال له تحت عنوان "تحية غائب كالآيب"، يبدأ فيه بوصف "الصبا" متحدثا عن صفاته التي عُرف بها قديما وحديثا، فيربط بين الماضي والحاضر بأسلوب جمالي متميز. يبدأ وصفه بقوله: «حيَّ الجزائر عني ياصبا... واحمل إليها مني سلاما تُباري لطافته لطافتك، وتساري إطافته إطافتك ...»[28]، ويستمر في وصفه للصبا مبدعا، لينتقل إلى الإنتاج الأدبي في قوله: «لي إليك وسيلة مرعية المتات بما أسلف أوائلي فيك من مدح (...) أنت يا صبا ريح، وكأن فيك قطعة من كل روح، يجد فيك كلّ غريب أنسا، وكل حبيب سلوى وكلّ مكروب تنفيسا، خلال كلها جلال...» إنه نص أدبي يستحق دراسة خاصة تستجلي جمالياته اللغوية، وأساليبه البيانية، وتجليات الوطنية، والعواطف الإنسانية.

- **أحكام نقدية:**

كان للإبراهيمي مواقف نقدية تحسب له، انتصر فيها لموقفه الوطني منها ما جاء في كلمته التي ألقاها بمناسبة مهرجان أحمد شوقي 1958م، وعلى الرغم من تفضيله للشاعر واعتزازه به إلا أنه عتب عليه منتقدا إياه بقوله: «ومع تأثر الجزائر الشديد بشعر شوقي وعقيدتها التي لا تتخلخل في شاعريته، ومع اعترافها بأنّه أوّل من هزّ هذا الشرق العربي ببدائعه وآياته فإن أدباء الجزائر مازالوا يعتبون عليه، بل مازالوا ينقمون عليه مدحه لفرنسا وافتتانه بحضارتها المزيفة وتخطيه الأصول التاريخية (...) فهو يقول: (...)

(وحررت الشعوب على قناها فكيف على قناها تُسْتَرَقُّ؟)»[29]

تتعدّد الأحكام النقدية في كتابات الإبراهيمي وتتنوع بحسب المقام، ولو قمنا بعملية جمع لها لوجدناها كثيرة. يمكن أن نقسم هذه الأحكام النقدية إلى اتجاهين؛ الأول يعتمد فيه النقد والتوجيه للأديب، والثاني يصدر حكما نقديا في موضوع وفق نظرته الخاصة. فمن آرائه النقدية التوجيهية قوله: «ولو رزق الأميري أناة في نظمه للشعر وصبرا على تحكيكه وصقله واستفتاء أساليب البلغاء فيه لجاء منه شاعر وأي شاعر»[30]. وفي المقال ذاته نجد له حكما نقديا يبرز فيه وجهة نظره اتجاه الشعر وقد نسب هذا الحكم للبصائر بقوله: «و"البصائر" ترحب بالشعر والشاعر (...) وترى أن أحكم الشعر ما صوّر خواطر صاحبه، وأن خواطر الشعراء هي مادة لشعرهم كيفما كان وزنها ولونها»[31].

ومن الأحكام النقدية التي أطلقها في كتاباته أن الحكم على شعر شاعر أو له يتوقف على الإحاطة به حتى تكون الصورة كاملة أمام الدارس. كما كان له رأي نقدي حول عبقرية المتنبي الأدبية وقارنه بأحمد شوقي في قوله: «... على حين كانت عبقرية المتنبي لا تتجاوز به مدح شخص بجود، أو شجاعة (...) أما الوصف الذي تتبارى فيه قرائح الشعراء وتتجارى سوابقهم فيه فليس للمتنبي فيه كبير قيمة إذا استثنينا قصيدته في شِعْب بوّان وقصيدتيه في وصف الحمى وفي وصف الأسد وفي قطع قليلة من شعره»[32]. وبهذا الحكم النقدي يتبين للدارس مدى تمكن الإبراهيمي من الشعر العربي القديم وقدرته على إصدار الأحكام النقدية وفق منهج علمي يحتكم إلى المعايير النقدية السليمة التي اعتمدها الأوائل

ويلقي حكمه بكلّ ثقة مقارنا عبقرية الوصف عند المتنبي بمثيلتها عند شوقي وينتصر في ذلك لشوقي المعاصر له على المتنبي الذي صنفه النقاد الأوائل في المراتب الأولى لشعراء العصر الذهبي الإسلامي عصر الدولة العباسية.

3- في نقد الأدب الجزائري:

كان اهتمام البشير الإبراهيمي بالأدب الجزائري على رأس اهتماماته الإصلاحية، لكن المقال الذي يبرز فيه نقده للأدب الجزائري بشكل مركز هو تلك المسودة التي لم تكتمل ولم يكتب لها النشر إلا في كتاب "الآثار" بعد زمن طويل، وهو المقال الذي كان عنوانه "منزلة الأدب في الحياة". كتبت هذه المسودة سنة 1953م، ردا على النقاش الحاد الذي دار بين أدباء الجزائر آنذاك في صفحات البصائر. يبدأ فيه بقوله: «هدرت شقاشق أبنائي أدباء الجزائر العزيزة ثم قرّت، في موضوع لم أستطع أن أسميه أدباً، إنما أسميه تلاوماً على الركود والسكون الذي عم الجزائر كلها في السنة الماضية..»[33]. وخلاصة نقده للأدب الجزائري أنه يرى في أدبائه عجزا عن تطوير ملكاتهم الأدبية ورضى بما في الأيدي من إمكانيات لغوية قاصرة عن تلبية الحاجيات الأدبية والإبداعية الواجب توفرها في أيّ أديب، يقول: «وأنّ من الإنصاف أن نقول إنّ الأدب عندنا في الجزائر لم يُكمل، وبينه وبين الكمال مراحل، والذي عندنا هو استعداد للأدب ولكنّه بدون أدوات، فهو يعتمد على المواهب..»[34]، لقد أكد على ضرورة تطوير الموهبة وتعزيز الملكة بالقراءة من كتب الأدب خاصة منها كتب الأوائل قراءة تأن ودرس.

خاتمة:

وفي الختام لا يسعني سوى أن أقف عاجزة عن الإحاطة بهذا الموضوع الذي وجدت فيه متعة كبيرة في البحث ووفرة في المادة الأدبية التي تحتاج منا إلى مزيد من الدراسة والتحليل، ويمكن أن نلخص نتائج هذه الدراسة في النقاط التالية:

- كان للنقد الأدبي العربي القديم حضور في كتابات الإبراهيمي الأدبية والنقدية من خلال المصطلح المعتمد ومن خلال القضايا النقدية التي أثارها.

- ينتمي البشير الإبراهيمي إلى مدرسة الإحياء العربية، أو ما يسمى بالمنورين العرب، على أنه كان منفتحا على ما استجد من فكر وأدب في العالم الغربي، دون أن يذوب في هذا الجديد الوافد، داعيا إلى التشبث بالتراث والاستنارة بهديه.
- كان الإبراهيمي منفتحا على الفنون الغربية المستحدثة ودعا إلى الاستفادة منها دون الإخلال بمبادئ الأمة.
- لم يكن متعصبا للقديم ولا داعيا للتجديد، وإنما دعا إلى التوسط في هذا الموضوع، فذم التقليد للتقليد والتجديد للتجديد.
- دعا إلى حرية الأديب وحماية حقوقه الأدبية من السرقة والاستغلال.

الهوامش والإحالات

(1)– آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي.ج 4. جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي. دار الغرب الإسلامي. ط: 01. 1997م. بيروت. ص: 83.

(2)– المصدر نفسه.

(3)– المصدر نفسه.ج 4. ص: 159.

(4)– المصدر نفسه. ج4. ص: 160.

(5)– المصدر نفسه. ج4. ص: 159

(6)– المصدر نفسه.

(7)– المصدر نفسه.ج 5. ص: 213.

(8)– المصدر نفسه. ج 5. ص : 227.

(9)– المصدر نفسه. ص: 213.

(10)– المصدر نفسه. ج4. ص: 159.

(11)– ينظر: المصدر نفسه. ج4. ص:86.

(12)– ينظر: المصدر نفسه. ج5. ص: 227.

(13)– المصدر نفسه. ج5. ص: 204.

(14)– ينظر: المصدر نفسه. ص: 207.

(15)– المصدر نفسه. ج5. ص: 213.

(16)– النقد الأدبي الحديث. مناهجه وقضاياه. سعد الدين كليب. منشورات حلب. ط: 01. 1998. ص: 09.

(17)– آثار الإمام البشير الإبراهيمي. أحمد طالب الإبراهيمي. ج4. ص:208.

(18)– المصدر نفسه. ج 5. ص: 213.

(19)– المصدر نفسه. ج4. ص: 83.

(20)– المصدر نفسه.ج5. ص: 211.

(21)– المصدر نفسه. ج4. ص: 85.

(22)– المصدر نفسه. ج5. ص: 257.

(23)– المصدر نفسه. ج4. ص: 86.

(24)– المصدر نفسه. ج5. ص: 211.

(25)– المصدر نفسه. ج1. ص: 67. (مقتطفة من خطاب مرتجل سنة 1930).

(26)– المصدر نفسه. ج2. ص: 325/ 326.

(27)– ينظر: المصدر نفسه. ج4. ص: 206.

(28)– المصدر نفسه. ص: 181.

(29)– المصدر نفسه. ج5. ص: 229.

(30)– المصدر نفسه. ج4. ص: 83.

(31)– المصدر نفسه. ص: 84.

(32)– المصدر نفسه. ج5. ص: 227.

(33)– المصدر نفسه.ج4. ص: 158.

(34)– المصدر نفسه. ص: 158.